حيونة الإنسان

تقديم

إن تصوّرنا للإنسان الذي يجب أن نكونه أمر ليس مستحيل التحقق، حتى وهو صادر عن تصوّر أدبي أو فني، ولكن هذا التصوّر يجعلنا، حين نرى واقعنا الذي نعيشه، نتلمس حجم خسائرنا في مسيرتنا الإنسانية، هي خسائرومتراكمة و مستمرة، طالما أن عالم القمع والاستغلال قائم ومستمر، وستنتهي بنا إلى أن نصبح مخلوقات من نوع آخر كان اسمه " الإنسان" ، أو كان يطمح إلى أن يكون إنساناً، ومن دون أن يعني هذا بالضرورة، تغيراً في شكله، إن التغير الأكثر خطورة هو الذي جرى في بنية الإنسان الداخلية العقلية والنفسية.

التوصيف

التعذيب، تعريفاً، هو ذلك الفعل المؤذي الذي يمارسه الإنسان على الإنسان الآخر عقوبةً ردعية أو قمعية أو تربوية أو لإجباره على أمر ما، كفعل معيّن أو البوح بمعلومات في التحقيق، وأحياناً كطقس ديني أو تجميلي أو لسبب اقتصادي وأحياناً كممارسة تدريبية أو... (وهذا هو المخيف) للاستمتاع فقط.

فالتعذيب لانتزاع الاعترافات أو المعلومات، سواء من قبل العدو عند السيطرة على الأسرى، أو عندما تلجأ إليه السلطات عند اعتقال عناصر شبكة معينة، يعني في كلا الحاتين أن هناك شخصاً لديه معلومات لا يريد الكشف عنها، وهناك طرف يريد انتزاع هذه المعلومات، ولو بالقوة، و " لو بالقوة" هذه تشمل على التعذيب بكافة أنواعه التي ابتكرها الإنسان في مسيرته " الحضارية" فيحدث امتزاج بين طلب المعلومات والرغبة الخالصة في الإيذاء وإيقاع الألم والرعب، ويصل الأمر أحياناً إلى نسيان سبب التعذيب، فيظل التعذيب هدفاً ووسيلة وغاية مستقلة، فبين الضرب في الزنزانة واللهو بالتقتيل سيكون هو مجال البحث في هذا الكتاب ، في هذا اللون من العنف البشري وتأثيراته على الطرفين: من يمارس التعذيب والتقتيل ومن يُمارَس عليه.

ورطة الإنسان الأعزل

المجازر الجماعية هي المثال الأكثر شمولية لـ " الأذى الذي يوقعه إنسان بإنسان آخر" وهي أكثر ما يخافه الإنسان في الحروب، وبخاصة بعد استسلام المقاتلين لأعدائهم، أو دخول الجيوش إلى المناطق المدنية المعادية، فالإنسان بذاته، ومن خلال الممارسات الشنيعة عبر تاريخ الحروب، لم يكن ميالاً إلى الحفاظ على حياة الجرحى والأسرى و الغرقى والمدنيين العزل والذي يحاول القانون الدولي حمايتهم في الحروب، فالحروب تقوم لأهداف يراها القادة والزعماء وتجعلهم يعلنونها ويشنونها، ولكن هذه الأهداف تصل إلى الأفراد بطريقة خاصة تجعلهم مؤهّلين للقتل من أجلها في الميدان، غير أن تأهيلهم لهذا القتل لا ينتهي عند استعدائهم على الخصم المحارب لقتله أو إيقاع الهزيمة فيه، بل يمتد إلى قتل الجريح و الأعزل والمستسلم ثم المدني المسالم، ما يمكن تلخيصه بالرغبة في إبادة الطرف الآخر إبادة نهائية، والهيئات الدولية بصفتها التعبير الأسمى عن الضمير العام المشترك، تحاول حماية هؤلاء الضعفاء، أو الذين انتهت فاعليتهم القتالية، من أخصامهم الأقوياء، و تتوسع الدائرة التي يطالب الضمير الإنساني العام المشترك نفسه فيها بالتدخل لتشمل (نظرياً) حماية الأقلّيات داخل الدول، ثم حماية الأفراد أنفسهم من الحكومات التي تحكمهم، وقد يصل الأمر إلى حماية التلاميذ من أساتذتهم والأبناء من أهلهم والزوجات من أزواجهن.

إن منّفذ التعذيب، بعد شحنه بفكر معيّن وعواطف وأحقاد خاصة، يشعر بأنه يؤدي خدمة خاصة للسلطة التي يحترمها أو يخافها أو يهابها أو للإيديولوجيا التي يؤمن بها، ةهذه السلطة هنا، هي الحكومة أو الشعب أو الحزب أو الطائفة أو الجماعة (الإثنية)، فالخصم "الحر" يجب أن يصنف على أنه "لا إنساني" كما يقول دافيد كوبر في " ديالكتيك التحرر"، " وغير الإنساني يصبح غير إنسان... وبهذا يمكن

تدميره تدميراً تاماً من دون أي احتمال لشعور بالذنب"، ومن هنا تبدأ الخطوة الأولى في إعداد القتلة وتدريبهم وتأهيلهم.

فلكي تنجح الإبادة يجب أن تتوفر لها أربعة عناصر، أولاً أن يكون منفذو الإبادة على اقتناع تام بصحة عملهم، و بأنهم يتصفون بالامتياز العنصري والإنساني من غيرهم، ثانياً: أن يكون أمام المنفّذين مجموعة تستحق الإبادة (من وجهة نظرهم) ثالثاً: أن تتوفر الأسلحة القادرة على التنفيذ بالسرعة المطلوبة، رابعاً: أن تتم العملية وسط جو سياسي ومعنوي خاص لا يكترث لعملية الإبادة، وإنما يقابل هذه العملية بالتفرج عليها.

يمكن القول أن " إطاعة الأوامر من سلطة عليا" سواء كانت محترمة أو مرهوبة ليست مسوّغاً كافياً لتفسير قدرة الإنسان على إيقاع الأذى المتعّمد (والذي يصل إلى حد الإبادة) بالإنسان الآخر المستضعف، فهناك أيضاً سبب اقتصادي يبدأ من حاجة الجلاد إلى راتبه و ينتهي إلى حاجة شعب إلى نهب شعب آخر وذلك بجعله يرى نفسه بأنه لا يستحق هذه الثروات التي في بلده ، وأن من يستحقها هو ذلك الآخر القوي المتجبر، وهذا لا يتم إلا بإذلال هذا الشعب أو الشخص و تسخيره والاستمرار في تجهيله (الأمر الذي لا يمكن أن يتم إلا بناءً على عدّ هذا الشعب المنهوب أقل من البشر أو بإيصاله إلى مستوى يصبح فيه أقل من البشر فعلاً) ، ولكلن هذا السبب غير كاف أيضاً، فالمضطهِد يريد أن يقمع شيئاً محدداً في المضطهَد هو جوهر الحياة، فهو يريده نصف حي، والنصف الأول " الزائد" هو الإرادة أو الحرية والكرامة، وهذه فوائض في المضطهَد لا يريدها المضطهِد، أما النصف الثاني فهو التلبية الطوعية لعمل السخرة الذي يمتد من العمل اليدوي إلى تحويليه إلى جندي مسلح لحماية عدوه أو خوض الحروب الذي يدفعه إليها هذا العدو، وكثيراً ما تكون ضد أبناء قومه أو ضد من يشبهونهم، فليس من المستحيل تحويل الإنسان إلى بهيمة، ولن تصل إلى ذلك إلا بإضعافه إضعافاً كبيراً، واللطمات لا تكفي أبداً، لا بد من المبالغة في التجويع.